

قدرة نظرية الفضاءات الذهنية على تأويل الأبنية اللغوية

د. لطفي الذوبيبي

باحث متخصص في النحو واللسانيات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان -تونس.

ملخص البحث:

نظرية الفضاءات الذهنية Mental spaces theory هي نظرية نفسية عرفانية صاحبها جيل فوكوني Fauconnier تنخرط ضمن النظريات والمناويل التي تعنى بتفسير العلاقة بين دلالة الأبنية اللغوية المنجزة والآليات الذهنية التي تنتجه تلك الدلالة وتتأولها في إطار النشاط اللغوي الخطابي.

نحن نفترض، في انتظار إثبات صحة ذلك، أنّ اعتمادنا بعض منطلقات هذه النظرية يقدم الكثير من الحلول التي تسمح بتأويل بعض الأبنية اللغوية التي لا يمكن فهمها وتفسير كيفية اشتغالها باعتماد أدوات التحليل اللساني الشكلي الممحض. ومن بين هذه المنطلقات أنّ النشاط اللغوي يعُد نشاطاً لسانياً ذهنياً منفتحاً على المقام توظف فيه العديد من الروابط connectors العرفانية لتأويل الأبنية والاهداء إلى الدلالة المقصودة.. ويتربّب على هذا التفسير اعتبار فهم البنية اللغوية، سواء كانت جملة أو نصاً، عمليةً ذهنيةً تفاعليةً مفتوحة تتحقق بمسار تأويلي يجري في "فضاءات ذهنية" Mental spaces منطلقتها المتكلّم ومنتها المخاطب في مقام ما.

الكلمات المفاتيح:

فضاء ذهني / رابط / عنصر بان للفضاء / لفظ / معنى / إحالة / قادح / هدف / عهد ذهني / حمل على المعنى...

تمهيد:

نظراً إلى أنّ الدلالة في الأبنية اللغوية، سواء كانت جملة أو نصاً، معطى مجرّد ومرن ومتغير فإنّ عملية فهم تلك الأبنية لم تعد معطى محسوماً سلفاً. من أجل ذلك حاولت بعض النظريات الأدبانية التداولية واللسانية العرفانية تجاوز هذا القصور وبحثت عن الآليات والأدوات المعرفية التي تُيسّر عملية محاصرة الدلالة وتحقيق كفاءة تفسيرية أقوى لفهم مقصد المتكلّم منتج البنية. وقد ثبتت عند التداوليين والعرفانيين أنّ المدخل الشكلي التركيبية وحده قادر على تحقيق التّطابق بين المقول والمقصود بالقول باعتبار أنّ الحسابات الشكليّة والمنطقية الرياضيّة قاصرة عن استيعاب دلالة تلك الأبنية وتوقع الممكن منها لا سيّما في الأبنية المجازية التي تتعدّد عملية فهمها ويتسّع فضاء تأويلها، ذلك أنّ تلك المداخل الشكليّة التركيبية تقصي عوامل إضافيّة من خارج عالم اللغة بإمكانها تقوية

الكفاءة التفسيرية. كما ثبت عند هؤلاء أن الاعتماد على مبدأ المعايشة *Immanence* والقابلية *Modularité* لم يعد يحقق المطلوب.

سنحاول في بحثنا هذا الاشتغال على القدرات العرفانية والطاقة الخلاقة للمتكلّم لتفسير كيفية بناء المعاني داخل الأبنية اللغوية المنجزة. وقد اخترنا نظرية "الفضاءات الذهنية" لتحقيق بعض الأهداف منها أن هذه النظرية تتيح لنا إمكانات إضافية لتأويل الأبنية اللغوية وفهم مقصد المتكلّم وتوفّر لنا أصولاً نظرية ناجعة تنظر في تكون تلك الأبنية في الأذهان قبل خروجها إلى التّحقيق اللّساني. فهذه النظرية لا تهتم بنظام اللغة وإنما تنظر في استعمال ذلك النّظام وتفسير ذلك الاستعمال وفي العمليّات الذهنية التي تسبقه أي تسبق ذلك الاستعمال.¹

1- الأسس النظرية لظهور مفهوم "الفضاء الذهني":

1-1- الذهن وبناء المعنى:

يعود حذر بعض النظريّات اللّسانية من المعنى واعتراض البعض الآخر عن دراسته إلى أنه معطى من وحيده وغير قابل للشكّلنة. ومن أسباب مرونته أن الألفاظ المعبّرة عن المعاني قد تُحمل على غير الأصل الذي وضع لها. فكثيراً ما ينزع المتكلّم إلى الخروج عن قواعد النّظم والإعراب الأصلية بسبب اتخاذه الألفاظ "لعبة" حسب تعبير فتغنشتاين. وهو ما يفضي إلى كثرة المعاني وإلى ضياع المعنى المقصود. فالالفاظ عند المتكلّم مجرد كساء للمعنى. "ومهما كان الكساء متقد الصنع فإنه لا يقدر أن يعبر عن كل المعنى" لأن المعاني عرضة للتّبديل والتّحويل (بن حمودة. 2004: 621). فإذا حولنا مواضع الكلم أو بدلنا عالمة جنس أو عدد أو إعراب أو تعبيين تغيّرت دلالة البنية اللغوية وتغيّر المعنى النحوّي وانتقلنا من وظيفة إلى أخرى.

وإذا علمنا أن عملية النّظم إنما هي من تصميم ذلك المتكلّم وهندسته، اعتبرنا تبعاً لذلك أن كل تحويل في مواضع الكلم وكل تصرّف في العلاقة بين الكلم راجع إليه.² وعمليّات التّصرف واللّعب والتّحويل تجعلنا نقر أن كل بنية لغوية، أي بنية، يوجهها مقصد بعينه يوجد في ذهن منتج تلك البنية لتحقيق الفائدة من الكلام.

وقد ترتب على مواطن الاهتمام هذه ظهور مفهوم الوظائف التّداولية *Fonctions Virtuelles pragmatiques* بديلاً عن الوظائف النحوية وظهور المعاني المتعددة والاحتمالية *Virtuels* بديلاً عن المعنى الأوحد.³ فالبنية اللغوية المنجزة الواحدة تحمل معنى أول وقد تنفتح على أكثر من معنى يقصده المتكلّم ويفهمه المخاطب اعتماداً على تلك المعرفة المشتركة بينهما بقواعد الإعراب وبقواعد بناء المعنى.

فإذا قلنا:

أ- فلان دخل في حيطة.

إنّا نستفيد معنى أول حاصلاً من ظاهر اللّفظ ينطق به المتكلّم، كما أنّا نفهم معنى ثانياً يفكّر فيه المتكلّم ويقصد إبلاغه مخاطبّه مفاده أنَّ ذلك الشخص صار يعيش أزمات متنوّعة عجز عن تجاوزها. ونوضح ذلك بالرسم التالي:



1-2- المجاز وتأويل اللّفظ:

من الأبنية التي تطرح إشكالات كثيرة لفهمها وتأوّل دلالاتها هي الأبنية المجازيّة والاستعاريّة. ومرد إشكالها الأوّل تواتر حضورها في كلامنا. ذلك أنَّ الاستعارة كما يقول لاكوف "حاضرة في كلّ مجالات حياتنا اليوميّة. إنّها ليست مقتصرة على اللغة بل توجد في تفكيرنا وفي الأعمال التي نقوم بها أيضاً. إنَّ النّسق التّصوري العادي الذي يسيّر تفكيرنا وسلوکنا له طبيعة استعاريّة بالأساس". (لاكوف. الاستعارات التي نحيا بها: 21). ومرد إشكال هذه الأبنية الاستعاريّة ثانياً أنَّ التّحليل الشّكلي والترّكيبي تتضاءل كفاءته التفسيريّة في مثل هذه الأبنية التي تتّسع فيها المعاني فتتعدّر تبعاً لذلك محاصرتها. وهو ما اقتضى ضرورة أن يُعَضَّد التّحليل الأوّل بالتّحليل التّداولي الذي يهتمّ بالمعاني المقصودة في الأبنية الاستعاريّة ذلك أنَّ الخطاب الاستعاري هو "خطاب يكون فيه مُراد القول غير مطابق لما قيل" ⁴ (موشليـر. القاموس الموسوعي للتداوليـة: 435).

ونظرا إلى أنّ فعل الكلام، كما بيناً أعلاه، حدث محكوم بعمليات ذهنية تسير بناء المعاني، فإنّ المتكلّم عندما ينتج البنية فهو يتحكّم في المعاني ويجعل المخاطب ينتقل من معنى إلى معنى بناء على ما استقرّ في ذهنه وفي عالم اعتقاده من معانٍ ومقاصد. كما يحمله على الانتقال من عالم إلى آخر أي من عالم الواقع إلى عالم جديد متخيّل بناء في ذهنه وقد كان المخاطب على علم به وبعناصره ومقتضياته.

هذا العالم المبنيّ في الأذهان يسمّيه لنcker بـ"فضاء الخطاب الراهن" Current discourse space. وهو "فضاء ذهني للعناصر والعلاقات التي يتقاسمها المتكلّم والمخاطب على أنها أساس لتواصلهما في لحظة معينة أثناء جريان الخطاب" (قريرة. 2011: 130). وهذا العالم المبنيّ في الأذهان عبر عنه فوكووني قبله بمفهوم الفضاء الذهني Mental space. وقد اعتبر أنّ المتكلّم وهو ينتج البنية اللغوية سواء كانت جملة أو نصاً فإنه ينقل مخاطبه بين فضاءات ذهنية مترابطة نحوياً ومنطقياً تيسّر لذلك المخاطب فهم تلك البنية والاهتماء إلى الدلالة المقصودة. وستتناول في هذا الموضع من البحث مفهوم الفضاء الذهني عند فوكووني لأنّنا نراه قادراً على أن يقدم لنا حلولاً هامةً وتفسيراً لكيفية اشتغال الأبنية المحازية وغيرها وقدراً على أن يستوعب الممكن منها.

2 - الفضاء الذهني عند فوكووني وأليات بنائه وقرائن الاهتماء إليه:

2-1 - مفهوم الفضاء الذهني:

نظريّة الفضاءات الذهنية Mental spaces theory هي نظرية نفسية عرفانية للساني الفرنسي جيل فوكووني⁵. وهي نظرية تنتهي إلى الأنساق اللسانية المفتوحة على المخاطب والمقام. ويفسر فوكووني وفق هذه النظرية العلاقة بين بعض الظواهر اللغوية والعمليات الذهنية التي تتيح تفسير كيفية اشتغال تلك الظواهر داخل الأبنية اللغوية التي تحتويها من قبيل ظواهر الإحاللة والدلالة والمطابقة النحوية وبعض حالات الإضمار...⁶

يرى فوكووني أنّ الكثير من الأبنية تنطوي على إشكالات في الفهم والتّأويل وتكون فيها الدلالة محدثة للبس ويكون التّحليل الشّكلي التّركيبي غير قادر على تفسيرها. واعتبر أنه بالإمكان إعادة قراءة تلك الأبنية وتفسيرها بواسطة "فضاءات ذهنية" تنتظم وترتّب في ضوء قرائن تركيبية ومقامية وثقافية واجتماعية تمكّن المخاطب من الاهتمام إلى الدلالة المقصودة وإلى المحال عليه داخل تلك الأبنية (Fauconnier. 1994: 16-22). فإذا قال النّادل لأمين الخزنة أو قابض النقود (م.ن: 6):

أ- غادرت عجة "الأوملات" دون تسديد الحساب.

(the mushroom omelet left without paying the bill).

فإنّ البنية تبدو لاحنة دلاليًا وإحالياً لأنّ النسبة المعنوية غائبة بين الحدث وصاحبه وبين صاحب الحدث وحاله، لكنّ هناك رابطاً ذهنياً عرفانياً يجعل المخاطب يهتدى إلى الدلالة

المقصودة والموضوع المحال عليه داخل تلك البنية. فالمخاطبُ قابض النقود يعرف أن هناك امرأة زبونة ترتاد ذلك المطعم اعتادت تناول عجة "الأوملات". وتواتر مثل هذه البنية في المطعم كما في: "ربع الدجاج يريد بعض الهريسة" أو في محطّات غسيل السيارات كما في: "الفورد جاء قبل الفيات" (الزناد، 2010: 198-200). والمتكلّم بهذه البنية عوض تسمية الأشياء المحال عليها بأن تجاوز قيود الألفاظ والتركيب ونقل المخاطب من فضاء أول يمثله الواقع إلى فضاء ثان ذهني متخيّل فك إغاظة البنية وكشف عن المحال عليه والدلالة المقصودة:

فضاء الواقع فضاء ذهني

ويذكر فوكونيري مثلا آخر يوضح به مفهوم الفضاء ويؤكّد مبدأ الانتقال الذهني من مجال إلى مجال أو من إطار إلى إطار أو من فضاء إلى فضاء (Fauconnier, 1994: 19):
بـ- في رسم لوقا تمتطي ساحرة قارنا.

(In Len's picture, a witch is riding a unicorn).

فالفضاء الأول هو الفضاء الواقع الذي يرسم فيه "لوقا" اللوحة أمّا الفضاء الثاني فهو افتراضي بناء الرسام في خياله وقد جسّده في اللوحة وصار المخاطب على علم به بواسطة القرينة التّركيبية "في رسم لوقا" وهذه القرينة مثلّت رابطاً نقلنا من فضاء أول إلى فضاء ثان.

مفهوم "الفضاء" إذن هو مفهوم ذهني عرفاني يعتمد قرائن تركيبية أو مقامية أو ثقافية أو اجتماعية تبني الدلالة وتضبط الإحالات وتجعلنا ننتقل من فضاء إلى فضاء بواسطة عمليات ذهنية تربط بين عناصر متباينة ذهنياً أو دلائياً أو زمانياً أو مكانياً ينتجها المتكلّم انطلاقاً من البنية اللغوية ويهدي إليها المخاطب اعتماداً على تلك القرائن. فالفضاء الذهني هو الوضعية التي ندركها مهما كانت درجة تعقيدها. وتضم مجموعة من العناصر والعلاقات التي تربط بينها. وعبر الخطاب تثار الفضاءات الذهنية وتبتعد وتتغير بإضافة عناصر جديدة وعلاقات" (قريرة، 2011: 129). وتعريف الفضاء على هذا النحو يمنحه كفاءة أقوى في تفسير المتحقق والممكن من البنية التي تعبّر عن الرسوم والصور والقصص والأفلام أو التي تعبّر عن المواقف والانفعالات كالأمر والنهي والافتراض والرجاء والتّمني والتّوهم أو التي تعبّر عن الواقع وتصفه بالأبنية المجازية والاستعارية⁷ ...

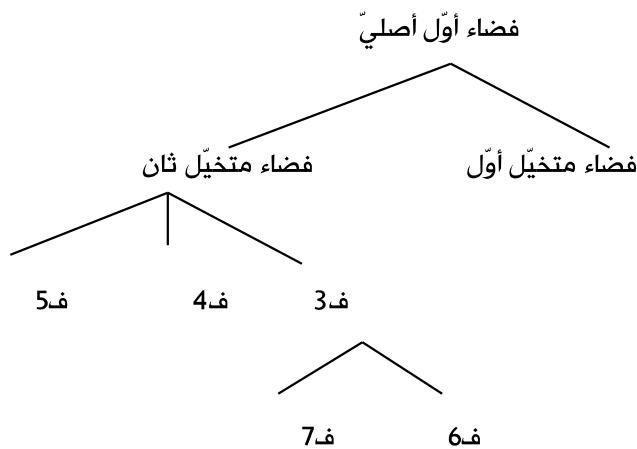
2- أنواع الفضاءات الذهنية:

بناءً على ما سبق من إشارات متصلة بالإطار النظري الذي مهد لظهور نظرية الفضاءات الذهنية وعلى ما سبق من تعريف لمفهوم الفضاء، يبدو أن كل بنية مجازية أو بنية تعبّر عن موقف أو انفعال تفترض توفر فضاءين على الأقل: الأول هو الفضاء الأصل وعادة ما يكون واقعياً يمثل منطلق الحركة الذهنية، والفضاء الثاني هو فرع متولد عن الأول

وهو إما أن يكون واقعياً أو معتقداً أو متخيلاً أو مفترضاً منقلاً إليه ذهنياً. لنذكر بعض أنواع الفضاءات التّوانى انطلاقاً من الأمثلة التالية:

- ج- ليت الشباب يعود يوماً. ← فضاء ذهني متمنٍ.
- د- كنت أتمتع بموفور الصحة. ← فضاء ذهني واقعي مفقود.
- هـ- أريد أن أصبح محاماً. ← فضاء واقعي منشود.
- وـ- لو كنت مكانك لفعلت كذا. ← فضاء ذهني افتراضي.

إذن أصناف الفضاءات حسب طبيعتها الدلالية وعلاقتها بالواقع كثيرة. وتلك الفضاءات حسب فوكوني قد تتکاثر في الجملة الواحدة أو في النص فيكون لدينا فضاء أول ذهني قد يتولد عنه فضاء ثان ثم يتولد عن الفضاء الثاني فضاء ثالث... وهكذا تتوالد الفضاءات وتترابط فيما بينها بدءاً بالمستوى الأعلى الذي يضم الفضاء الأول الأصلي إلى المستويات الفرعية فتحصل على شجرة من الفضاءات. هذا التّوالد يشبه عملية التناسل الطبيعي. لذلك أطلق فوكوني على الفضاء الأول "الفضاء-الأب" Parent space والفضاء الثاني Fauconnier. 1994 :18-) أو الفضاء-البن Child space (Fauconnier. 1997 :39). وقد مثل فوكوني لهذه الشبكة من الفضاءات في (39:19) بالتّشجيرة التالية:

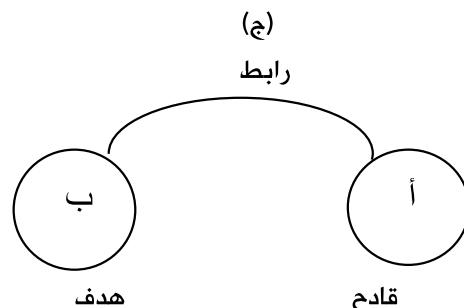


ويفترض فوكوني وجود فضاء أساس Base space يمكن أن يمثل منطلاقاً داخل الخطاب ينظر منه إلى سائر الفضاءات فينتظمها وتترابط معه. ويسميه الفضاء المنظور Viewpoint. كما يفترض وجود فضاء آخر يمثل مركز الفضاءات ومحلّ عناية المتكلّم ومنه تتوالد سائر تلك الفضاءات ويسميه الفضاء-البؤرة Focus space (م.ن:38-39).

إنَّ تعدد الفضاءات بهذا التَّصوُّر يعكس مرونة المعنى واتساعه وانفتاحه على عدَّة احتمالات meaning potential (م.ن: 37) كما يؤكِّد ذلك التَّصوُّر ارتهاَن المعنى بما استقرَّ عند المتكلَّم من عمليَّات ذهنية كثيفة ومعقدة لكنَّها تخرج إلى الإنجاز بأبنية نحوية منطقية منظمة تحقَّق التَّواصل مع المخاطب بواسطة تلك المعرفة المشتركة بقواعد التَّركيب وبكيفيَّة بناء المعاني وبواسطة مجموعة من العناصر التي تمكَّن من "بناء المعنى" Meaning construction وتبني الفضاءات. ويسمُّيها فوكوني "العناصر البناءية للفضاء". Space-Builders

2-3- العناصر البناءية للفضاء:

عملية ضبط الفضاءات التي تجري بينها الأبنية اللغوية يسِّيرها مفهوم الوظيفة التَّداولية⁸. وتتحدد هذه الوظيفة بواسطة عمليَّات ذهنية تعين العنصرين الأساسيَّين في عملية البناء الذهني للفضاء من أجل بناء دلالة الأبنية التي تنطوي على إشكالات في فهم مقصود المتكلَّم منها: العنصر الأوَّل هو "قادح الإحالَة" Trigger، والعنصر الثاني هو "هدف الإحالَة" Target (Fauconnier. 1994: 11-12). ويكون هناك رابط Connector يعبر عن العلاقة بين الفضاء الأوَّل والفضاء الثاني. وقد مثل فوكوني للقادح (أ) والهدف (ب) والرابط (ج) بالرسم التالي (م.ن: 5):



أما العناصر البناءية للفضاء الجديد فهي قرائن تركيبية بأساس تربط بين القادح والهدف وتنقلنا إلى الفضاء الجديد أو توجهنا إلى فضاء بعينه. يقول فوكوني: "العنصر البني للفضاء هو وحدة نحوية إما أن يفتح فضاء جديداً أو أن يحوّل وجهة البؤرة إلى فضاء موجود سلفاً"⁹ (Fauconnier. 1997: 40). وقد تكون هذه العناصر وحدات تصريفية (من قبيل قرينة الزَّمن) أو معجمية. وقد تعبر العناصر البناءية Builders عن معاني الفضاءات الجديدة مثل:

التَّوْهُمْ: كَانَ، يَبْدُو، طَنَ، حَسْبَ...

الافتراض: إِذَا كَانَ... فَ، لَوْ... لَـ...، ...

الاعتقاد: أَعْتَدْ أَنَّ، فِي تَصْوِيرِي، وَفَقَـ...ـ

التمني: لَيْتَ، أَتَمَنِي أَنَّ...

الرَّجَاء: عَسَى، أَرْجُوا، لَعَلَّ... (موشليـرـ الموسوعة التــداولـيةـ: 164).

وقد تعـبر تلك العـناصر الـبـانـية لـلفـضـاء عـن الصـور أو الرـسـوم أو القـصـص كـما فيـ المـثالـ (بـ) أـعلاـهـ أوـ فيـ قولـ الفتـاةـ:

زـ- وجهـيـ أـجمـلـ فـيـ المـرأـةـ.

حيـثـ تـعـدـ الـقـرـينـةـ "فـيـ المـرأـةـ"ـ الـعـنـصـرـ الـبـانـيـ الـذـيـ رـبـطـ بـيـنـ الـقـادـحـ وـجـهـ الـفـتـاةـ الـحـقـيقـيـيـ

وـالـهـدـفـ وـجـهـهـاـ الجـمـيلـ الـمـتـخـيـلـ أوـ الـمـفـتـرـضـ أوـ الـمـتـمـنـيـ.

ويـمـكـنـ أنـ يـكـونـ الـعـنـصـرـ الـبـانـيـ مـقـامـيـاـ أوـ ذـهـنـيـاـ عـهـدـيـاـ بـيـنـ الـمـتـكـلـمـ وـالـمـخـاطـبـ.ـ فـفـيـ

المـثالـ (أـ)ـ أـعلاـهـ "غـادـرـتـ عـجـةـ الـأـوـمـلـاتـ دونـ تـسـدـيـدـ الـحـسـابـ"ـ تـعـتـبـرـ "عـجـةـ الـأـوـمـلـاتـ"ـ قـادـمـ

الـإـحـالـةـ وـ"ـالـمـرأـةـ"ـ هـيـ هـدـفـ الـإـحـالـةـ،ـ وـالـعـنـصـرـ الـبـانـيـ الـذـيـ رـبـطـ بـيـنـ الـقـادـحـ وـالـهـدـفـ عـنـصـرـانـ:

الـأـوـلـ هـوـ ذـلـكـ الـعـهـدـ الـذـهـنـيـ بـيـنـ الـمـتـكـلـمـ وـالـسـامـعـ وـيـسـمـيـهـ فـوـكـوـنـيـ الـعـهـدـ الـعـرـفـانـيـ

الـرـأـبـطـ الـلـذـانـ كـوـنـاـ "ـفـضـاءـ الـذـهـنـيـ"ـ الـجـدـيدـ الـذـيـ رـفـعـ الـإـبـهـامـ عـنـ الـبـنـيـةـ الـمـنـجـزـةـ بـعـدـ أـنـ

خـرـجـتـ الدـلـالـةـ مـنـ أـصـلـهـاـ إـلـىـ مـجـازـهـاـ.

وـنـظـرـاـ إـلـىـ أـنـ الـبـنـيـةـ الـلـغـوـيـةـ يـنـتـجـهاـ الـمـتـكـلـمـ بـنـاءـ عـلـىـ مـقـصـدـ يـوـجـدـ فـيـ نـيـتـهـ وـيـتـكـونـ

فـيـ ذـهـنـهـ فـإـنـ اـسـتـعـمـالـ الـعـنـصـرـ الـبـانـيـ لـلـفـضـاءـ يـفـتـرـضـ أـنـ يـكـونـ مـسـبـوقـاـ بـخـطـةـ يـأـخـذـ فـيـهـ

الـمـتـكـلـمـ بـعـيـنـ الـاـعـتـبـارـ شـرـطـيـنـ أـسـاسـيـنـ:ـ الـأـوـلـ أـنـ تـكـوـنـ الـفـضـاءـاتـ بـعـضـهـاـ مـلـائـمـاـ لـلـبـعـضـ

ـM~atc~hingـ،ـ وـالـأـمـرـ الثـانـيـ أـنـ يـكـونـ وـاعـيـاـ بـالـمـسـارـ التــاوـيـلـيـ الـذـيـ سـتـسـيرـ عـلـيـهـ عـمـلـيـةـ الـاـهـتـداءـ

إـلـىـ تـأـوـيلـ الـبـنـيـةـ عـنـدـ الـمـخـاطـبـ حـتـىـ يـنـجـحـ بـنـاءـ الـفـضـاءـاتـ وـبـنـاءـ الـمـعـنـىـ¹⁰ـ Accessـ

(Gawronska.1999:4).ـ فـإـذـاـ غـابـ الرـأـبـطـ مـثـلاـ وـضـعـفـتـ الـعـلـاقـةـ بـيـنـ الـفـضـاءـاتـ غـابـ سـبـيلـ

الـاـهـتـداءـ إـلـىـ الـفـضـاءـ وـكـانـ فـشـلـ بـنـاءـ الـفـضـاءـاتـ وـفـشـلـ بـنـاءـ الـمـعـنـىـ.ـ فـلـوـ رـبـطـنـاـ فـيـ التــشـبـيـهـ

بـيـنـ شـيـئـيـنـ لـاـ جـامـعـ بـيـنـهـمـاـ فـيـ نـحـوـ قـولـنـاـ:ـ "ـرـأـسـهـ كـالـعـودـ"ـ لـحـصـلـنـاـ عـلـىـ فـضـاءـيـنـ مـتـنـافـرـيـنـ

وـغـابـتـ الدـلـالـةـ لـأـنـ غـيـابـ الـجـامـعـ الـمـعـنـوـيـ بـيـنـ الرـأـسـ وـالـعـودـ يـجـعـلـ عـمـلـيـةـ الـاـهـتـداءـ إـلـىـ

الـفـضـاءـاتـ عـسـيـرـةـ.

انـطـلـاقـاـ مـاـ سـبـقـ يـمـكـنـ اـسـتـخـلـاصـ أـهـمـ الـمـبـادـئـ الـتـيـ بـنـ عـلـيـهـ فـوـكـوـنـيـ نـظـريـتـهـ:

1- اعتـبارـ الـأـبـنـيـةـ الـلـغـوـيـةـ أـبـنـيـةـ مـرـنـةـ مـتـحـرـكـةـ دـلـالـتـهاـ اـحـتمـالـيـةـ أـيـ غـيرـ مـعـطـاـةـ لـلـفـهـمـ

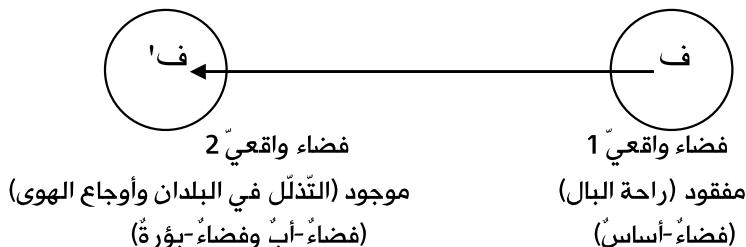
سـلـفـاـ وـيـهـنـدـيـ إـلـيـهـاـ عـنـ طـرـيـقـ مـجـمـوـعـةـ مـنـ الـقـرـائـنـ الـذـهـنـيـةـ الـعـرـفـانـيـةـ وـالـتـرـكـيـبـيـةـ وـالـمـقـامـيـةـ.

- 2- الرابط بين عالم الأذهان وعالم اللسان من أجل الحصول على الأدوات العرفانية التي تفسر المتحقق من الأبنية اللغوية والممكن التتحقق.
- 3- اعتبار النشاط اللغوي عملية ذهنية تفاعلية مفتوحة يتشارك فيها المتكلم والمخاطب في فضاء ذهني خطابي تأويلي يسمى "الفضاء الذهني". ولما كانت غايتنا من هذا البحث تفسير كيفية ابناء المعنى وتأويله من خلال بعض الأبنية اللغوية المنجزة في ضوء مفهوم الفضاء الذهني فإننا سنحاول في ما يلي إثبات الكفاءة التفسيرية لهذا المفهوم وتطبيق بعض مبادئه من خلال مقطوعة من قصيدة للشاعر الجزائري الصوفي أبي مدين التلمساني.
- 3- كفاءة مفهوم الفضاء في تفسير الأبنية اللغوية وتحصيل الدلالة من خلال نصّ "لو كان لي قلبان":

وبتُ بأوجاع الهوى أتقأّبُ وأنتركُ قلباً في هواكَ يُعذبُ فلا العيش يهنا لي ولا الموتُ يقربُ	1- تذللت في البلدان حين سبيتنى 2- فلو كان لي قلبان عشت بوحدٍ 3- ولكن لي قلباً تملّكه الهوى
--	--

تدُوقُ سِيَاطِ الموتِ والطَّفْلِ يَلْعَبُ وَلَا الطَّيْرُ ذُو رِيشٍ يَطِيرُ فِيهِرُبُ أبو مدين التلمساني [البحر الطويل]	4- كعصفورة في كف طفل يضمها 5- فلا الطفل ذو عقل يرق لحالها
---	--

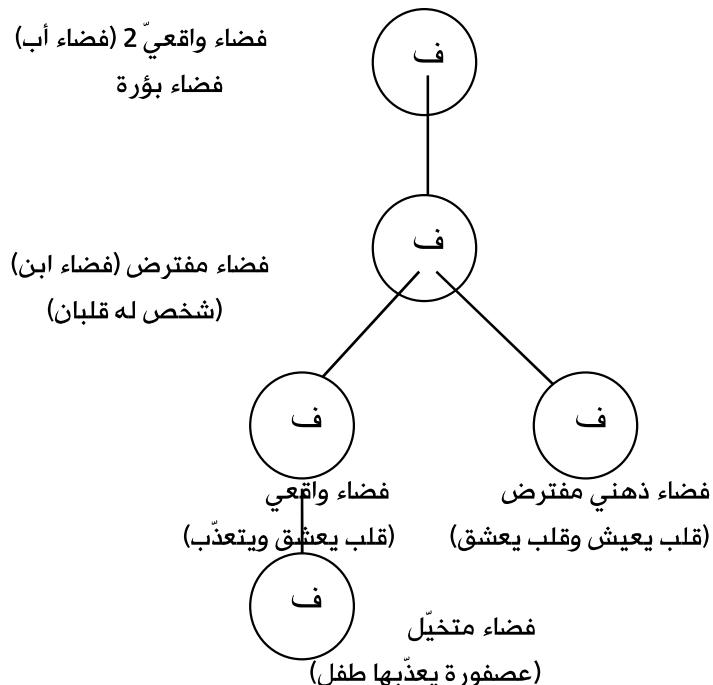
يبني الشاعر في البيت الأول فضاءً-بؤرة هو فضاء الواقع والحال وقد تولد عن فضاء واقعي أول مفقود، نعتبره الفضاء-الأساس، لا يشكو فيه الشاعر ضيق الحال. والفضاء البؤرة هو الإطار الذي يشكو فيه للمخاطب التذلل وأوجاع الهوى حين وقع في حبه والذي سيكون محلّ عناية المتكلم لبناء المعاني التي ينتظمهما في ذهنه ليخرجها على نحو مخصوص يبني به سائر الفضاءات المعاوile. والقرينة الزمانية "حين سبيتنى" هي التي نقلتنا إلى فضاء ذهنيّ جديد مضمونه حدث السّبّي المجازي لقلب العاصق وإلى فضاء زمانيّ جديد. كما أنّ قرينة المكان "في البلدان" نقلتنا إلى فضاءات مكانية مفترضة تؤكد شعور التذلل عند العاصق والتقلّب في المشاعر وفي الأمكنة:



هذه الحال التي آل إليها المتكلم والتي صورها في فضاء واقعي ونقلنا إليها ذهنياً دفعته إلى محاولة إيجاد الحلول للخلاص وتحقيق الرضا. لذلك ستنشأ فضاءات ذهنية أخرى متولدة عن الفضاء الواقعي الثاني ومتصلة به تركيبياً بواسطة "الفاء" ومربوطة به دللياً وذهنياً. وأول فضاء جديد (وهو الثالث) هو فضاء ابن مفترض بناء الشاعر بواسطة العنصر الباني "لو" الذي يفترض ذهنياً وجود شخص له قلبان. وقد ذهب الشاعر إلى أكثر من ذلك ليفترض تحقق تلك الفرضية المتمثلة في فضاء ذهني رابع يعيش فيه بقلب واحد ويترك الثاني يتذبذب بالهوى ويذلل للمعشوق.

وعندما أدرك استحالة تحقق العالم الذهني الافتراضي المتخيل عاد إلى الواقع واستدرك في البيت الثالث بعنصر بان "لكن" بني به فضاء آخر أعاده إلى الواقع مضمونه أن له قلباً واحداً تملّكه الهوى سيرضى به وسيعيش به حياة بينَ بينَ لا هناء ولا موت، بما عمّق لديه الإحساس بالعجز. وقد أفضى هذا الشّعور إلى فضاء ذهني جديداً سيتوّلد عنه فضاء ذهني آخر تبنيه أداة التّشبّه "الكاف" التي ربطت بين صورتين ملائمتين أو فضاءين ملائمين: الفضاء الأول هو فضاء العاشق الذي يتذبذب بين يدي معشوقه ولا يستطيع الخلاص من محنته، والفضاء الثاني هو فضاء العصفورة التي يذبّها مكر الطفل ذي العقل الصّغير ولا تستطيع الفرار منه.

ونصوغ تصوّرنا للفضاءات التي بناها الشّاعر في هذا النص في التّشجيرة التالية:



نعتقد أننا تمكّنا بفضل تطبيق بعض مبادئ نظرية "الفضاءات الذهنية" من استيعاب الكثافة الدلالية التداولية التي يوفرها هذا النص ومن تفسير العلاقات الرابطة بين الفضاءات وضبط العمليات الذهنية التي تسيرها والأدوات التركيبية التي تربط بينها. ونرى أنّ مبدأ التّلاؤم بين هذه الفضاءات وحسن توظيف منتج النص للعناصر البنائية لها هو الذي أسهم في تبسيط عملية القراءة والتّأويل في ضوء النظرية المذكورة. فما يتكون في ذهن منتج النص من معان يحتاج إلى بنية لغوية مخصوصة بوحدات تركيبية محددة لتوجيه المسار التّأويلي وفهم المقصود.

نظرية الفضاءات الذهنية قادرة حسب منطلقاتها ومبادئها على أن تستوعب الكثير من الأبنية المجازية أو الأبنية التي ترد على وجه الحقيقة وأن تفسّر بناء المعاني وانتظامها داخل تلك الأبنية. كما أنها قادرة على تفسير الأبنية المتضمنة لتباعد ظاهر بين الأزمنة أو الأمكنة وتفسّر التناقض الظاهري بين الأحداث داخل النص وتفسّر الوضعيّات الافتراضية أو المتخيلة أو المتمثّلة أو المفقودة... لكن رغم الحلول التي تقدّمها هذه النظرية لتفسير العديد من الأبنية فإن بعض الدارسين اعتبر أن هذه النظرية تفرط في التبسيط وتسهيل عملية تأويل الأبنية وتفسير كيفية اشتغال الدلالة فيها. فقد اعتبر جاك موشلير Moeschler (ل) مثلاً أنّ من بين الصّعوبات تطبيق مفهوم الوظيفة التداولية ذلك أنّ ضبط القادر والهدف أمر قد لا توفره بعض الأبنية وقد استدلّ على ذلك ببعض الأمثلة (موشلير، القاموس الموسوعي للتداولية: 179-180).

4- صدى مفهوم الفضاء الذهني في التراث البلاغي والنحو العربي:

لا شك أن هذه النظرية وجدت صدى واسعاً في الدراسات اللسانية المعاصرة وقد تناولها الدارسون بالشرح والتطبيق باعتبار نجاعتها في التفسير. لكن الذي لفت انتباها هو حضور صدى هذه النظرية في تراثنا البلاغي والنحو العربي. وقد رصدنا ثلاثة مفاهيم لها صلة وثيقة بمفهوم الفضاء الذهني نوضحها في ما يلي:

1-4 - مفهوم الاعتقاد عند السّكاكى:

اهتم السّكاكى في مفتاح العلوم بالنظر في العلاقة بين اللّفظ والمعنى في سياق نظره في التّطابق المحتمل بينهما دراسة المجاز والأبنية الاستعارية التي تخرج فيها الألفاظ عن أصل وضعها أي من دلالتها الأصلية إلى دلالتها الاحتمالية. وقد قسم السّكاكى الدلالة قسمين: "دلالة وضعيّة" هي المستفاده من اللّفظ والمطابقة له وتسمى أيضاً "دلالة مطابقة"، و"دلالة عقلية" تفتح على التّأويل وتستفاد مما يقصده المتكلّم وتشمل نوعين: الأول ما يتضمّنه ذلك اللّفظ من معان ويسمى "دلالة تضمن" كتضمن السقف للبيت، والنوع الثاني ما يكون من مستلزمات ذلك اللّفظ ويسمى "دلالة الالتزام" كلزوم الحائط للبيت (السّكاكى. مفتاح العلوم: 437):

اللفظ → دلالة أصلية أولى ← دلالة فرعية أولى ← دلالة فرعية ثانية...

(دلالة وضعية) (دلالة عقلية) (دلالة عقلية)

فالدلالة الوضعية هي دلالة واحدة لا غير لأنها تمثل المتعارف عليه والتي تناسب منطق العلاقات بين اللفظ والأشياء المحال عليها في الكون الخارجي. أما الدلالة العقلية فهي مفتوحة على عدة احتمالات لأنها خاضعة لاختيار المتكلّم ومتصلة بما يوجد في اعتقاد مخاطبه من معانٍ ومفاهيم بما يسمح بالانتقال من معنى إلى معنى دون خشية اللبس أو التناقض بضم المعاني. يقول السكاكبي: "ولا يجب في التعلق أن يكون مما يثبته العقل، بل إن كان مما يثبته اعتقاد المخاطب، إما لعرف أو لغير عرف، أمكن المتكلّم أن يطبع من مخاطبه ذلك في صحة أن ينتقل ذهنه من المفهوم الأصلي إلى الآخر بواسطة ذلك التعلق بينهما في اعتقاده" (م.ن: 437). ومفهوم الاعتقاد الذي يمثل الرابط بين المعاني الأصول والمعاني الاحتمالية الموجودة في الأذهان والذي يبرر الانتحال بينها، هو نظير لعالم الاعتقاد الذي تحدث عنه روبير مارتن (Martin. 1983: 114). أما مفهوم التعلق فهو يعني التلاويم Matching بين تلك المعاني كما وضحه فوكوني.

4-2 - مفهوم الحمل على المعنى عند ابن جني:

تطرح قضية الحمل على المعنى مشكلة التوازن المطلوب في الظواهر اللغوية بين اللفظ والمعنى. ولفظ الحمل لغة يعني في ما يعنيه خروج الشيء عن أصل وضعه. وفي الاصطلاح يعني إجراء البنية على ما يوجد في ذهن المتكلّم من معانٍ وألفاظ. ويترتب على هذا العدول في التصرّف في وجوه الاستعمال وجود بنية لغويتين: الأولى متقدّقة باللفظ والثانية موجودة في ذهن المتكلّم يمكن للمخاطب فهمها بما يمتلكه من معرفة بحقيقة اشتغال الظواهر اللغوية. وأنواع الحمل ومظاهره عديدة في نظام العربية (ابن جني). الخصائص: 111/2 ...). وهذا التصرّف يعني أنّ منتج البنية المنجزة يحمل مخاطبه على الانتقال من فضاء أول تعبّر عنه تلك البنية إلى فضاء ذهني ثان هو المعنى الذي يوجد في ذهنه والذي يعيّد البنية المعدولة إلى ما كانت عليه قبل التصرّف:

بنية منجزة ← بنية محمولة
(متقدّقة باللفظ) (موجودة في الذهن)



إنّ الحمل على المعنى بهذا التصور هو حمل للمتكلّم على الانتقال من فضاء أول تبنيه الألفاظ والبنية إلى فضاء ثان ذهني يبنيه المتكلّم في ذهنه ويكون واقعاً في اعتقاد المخاطب. لذلك يعتبر بعض الدارسين أنّ هذا المبدأ يختزل الكثير من المعطيات الذهنية

والمعجميّة والدلاليّة والإعرابيّة التي توجّه إلى مخاطب يُعنِس بتفسيرها وتتأوّلها (الحizm. 2009: 94-95). وهو مبدأ يتطابق مع بعض قواعد نظرية الفضاءات الذهنية.

3-4 - مفهوم العهد الذهني عند الاستربادي:

يقصد النّحاة العرب القدامي بالعهد الذهني المعنى الذي يوجد في ذهن المتكلّم ويكون المخاطب على علم به وقد غابت لوازمه اللفظيّة من البنية المنجزة لعلة من العلل. وقد تناول النّحاة العرب بعض الطّواهر اللّغويّة التي يشتغل جانب منها حسب مفهوم العهد الذهنيّ منها ظاهرة التّقدير والحدف وبعض حالات الإضمار والحمل على المعنى... فعندما تقول مخاطباً شخصاً: "ذلك ما ابْتُلِيتُ به" أو تقول: "هو سبب محنتي" فإنّ دلالة المشار إليه والمقصود بالإضمار هو مرجع موجود في ذهن المتكلّم ومعهود بينه وبين مخاطبه. وحتى تعريف الأسماء يكون أحياناً بـ"الـ" العهدية التي تحيل إلى شيء سبق ذكره وقد كان معهوداً في ذهن المتكلّم والمخاطب.

وقد تواتر ذكر هذا المفهوم عند الاستربادي في مواضع كثيرة من شرحه لكافية ابن الحاجب. يقول في تعريف الموصول والمصلة وبيان خصائصهما التّركيبية والدلاليّة: "الموصولات معارف وضعاً وذلك لما قلنا إنّ وضعها على أن يطلقها المتكلّم على المعلومات عند المخاطب" (الاستربادي. شرح الكافية: 3/7). ويضيف في نفس السياق: "إنّ تعريف الموصول بوضعه معرفة مُشاراً به إلى المعهود بين المتكلّم والمخاطب بمضمون صلته" (م.ن: 8/3).

عندما حلّلنا المثال (أ) الذي تناوله فوكونبي اعتبرنا أنّ الرابط الأول بين القادر "عجة الأوملات" والهدف "المرأة الزّبون" هو رابط ذهنّي عهديّ بين المتكلّم والمخاطب. نعتقد أنّ المفاهيم التي بنى عليها فوكونبي نظريته بإمكانها إعادة قراءة جانب من المفاهيم والمبادئ التفسيرية التي اعتمدها ترا ثنا النحوّي والبلاغي لتفسير بعض الأبنية اللغوية وتأويلها.

خاتمة:

نظرية الفضاءات الذهنية إذن هي نظرية تتجاوز المداخل التركيبية الشكلية المعتادة لتنفذ إلى العمليات الذهنية التي تسير حديث إنتاج البنية اللغوية. ويمثل مفهوم "الفضاء" مفهوما محوريا تتصل به شبكة من المفاهيم والمبادئ التي تختزل النظرية وتعبر عن توجهها العرفاني التداولي من قبيل مفهوم القادح والهدف والرابط والعناصر البنائية... إن فهم البنية اللغوية، سواء كانت جملة أو نصا، عند فوكوني هو عمل معطى للمعالجة والقراءة بواسطة المداخل العرفانية والخطابية التداولية التي تنظر في الآليات الذهنية التي تنتج الدلالة وتسيّر وجهة المقاصد لتحصيل الفائدة عند المخاطب. ذلك أن النشاط اللغوي هو نشاط خاضع لمسار تكoinي أولا لأنّه ينشأ في ذهن المتكلم وخاضع لمسار تأويلي ثانيا لأنّ البنية اللغوية ليست معطاة لفهم. لذلك تبقى حيّة ومتقدّدة وقابلة للتأويل وإعادة القراءة بشتى المداخل.

إن هذه النظرية كما فهمناها يمكن أن توفر لنا إمكانات إضافية لتأويل الأبنية اللغوية وتفسير كيفية ابناء المعاني داخلها وكيفية إنتاجها. لذلك تعتبرها نظرية تكoinية أولا ثم تأويلية ثانيا.

المراجع المساعدة:

١- العربية:

- * ابن جنّي (أبو الفتح) (ت392 هـ): - الخصائص. تحقيق محمد علي النجّار دار الكتب المصرية. المكتبة العلمية. مصر (د.ت)
- * الأستربادي (رضي الدين) (ت686): شرح الرضي على الكافية. تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر. منشورات جامعة قاريونس. بنغازي. ط. 2. (1996).
- * بن حمودة (رفيق): (2004). الوصفية: مفهومها ونظالمها في النظريات اللسانية. دار محمد علي للنشر. ط 1 . تونس.
- * بن غربية (عبد الجبار): (2010). مدخل إلى النحو العرفاني. مسكيليانى للنشر والتوزيع. كلية الآداب والفنون الإنسانيات بمنوبة. ط 1.تونس.
- * الحيزم (وئام): (2009). تأويل اللفظ والحمل على المعنى. كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية. جامعة تونس. ط 1.
- * الزناد (الأزهر): (2010). نظريات لسانية عرفنية. نشر مشترك دار محمد علي الحامى للنشر. تونس.
- * السكاكى (أبو يعقوب) (ت626 هـ): مفتاح العلوم. تحقيق د. عبد الحميد هنداوي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان. ط 1. 2000.
- * قريرة (توفيق): (2011). الاسم والاسمية والإسماء في اللغة العربية: مقاربة نحوية عرفانية. مكتبة قرطاج للنشر والتوزيع. ط 1.
- * لايكوف (جورج) وجونسن (مارك): (2009). الاستعارات التي نحيا بها. ترجمة عبد المجيد جحفة. دار توبقال. المغرب. ط. 2.
- * موشليير (جاك) وريبول (آن): (2010). القاموس الموسوعي للتدليلية. ترجمة مجموعة من الأساتذة والباحثين. المركز الوطني للترجمة. السّحب الثاني. تونس.

٢- الأجنبية:

- * Fauconnier (Gilles): - (1994). Mental spaces: Aspects of meaning construction in natural language. Cambridge university Press.
- (1997). mappings in thought and language. Cambridge university Press.
- * Gawronska (Barbara), Anttila (Jaana) and Jacobsson (Dan-Ivar): Mental spaces, space builders and bilingual summarization of news reports. Proceedings of 8th International Conference on Theoretical and Methodological in Machine Translation, August 1999, Chester, UK. Issues

* Martin (Robert): (1983). Pour une logique du sens. P.U.F .Paris.

* Teun A. van Dijk : (1991). Cognitive Context Models and Discourse. Congressional Record. Proceedings and Debates of the 102d Congress, First Session, June 04, 1991, Vol. 137, No. 84.

المواهش:

¹- لذلك يدرج بعض الدارسين هذه النظرية ضمن علم النفس العرفايي .(teun.1991:189)

²- اعتبر الشريف أن كل علاقة تحت بين الوحدات اللسانية داخل بنية ما إنما هي في الحقيقة علاقة من إنشاء المتكلم وقد وسمها بـ"حدثية العلاقة". يقول: "كل علاقة نحوية بين عنصرين إنما هي حدث ينشئه المتكلم. وهذا نسميه حديثة العلاقة" (الشريف.2002:803).

³- يوجد اختلاف بين المعنى والدلالة وقد اهتم بين غريبة بهذا الفرق من أجل تعريف علم الدلالة وتحديد منزلة هذا العلم في الدرس العرفايي المعاصر (بن غريبة.2010).

⁴- اشتغلت التداولية ابتداء من جون سيرل (John Searle) على بعض الأبنية المجازية واهتم بها بعض اللسانيين العرفاين وخاصة لاكوف في إطار تفسير كيفية اشتغال الدلالة المجازية.

⁵- جيل فوكوني هو لساني فرنسي الأصل لكنه نشأ في الولايات المتحدة الأمريكية ويدرس اللسانيات في جامعاتها. وهو تلميذ لانقكار. ينتمي إلى فرع من التيار الدلالي العرفايي يهتم أصحابه بمعالجة الدلالة العرفايية في سياق التخاطب.

⁶- سنعتمد مؤلفين لفوكوني نراهما يستوبيان أهم مبادئ هذه النظرية هما: (Fauconnier. 1997) ثم (Fauconnier. 1994)

⁷- قد يفسر مفهوم الفضاء أيضاً الأبنية اللغوية التي ترد على وجه الحقيقة ولا خيال فيها ولا افتراض كأن نقول: "كنت في منزلي القديم أعلم بالهدوء. وعندما غيرته تبدلت حياتي". فالملتفكم نقلنا من فضاء أول هو المنزل الأول إلى فضاء ثان هو المنزل الثاني. وهذا فضاءان واقعيان لا افتراض فيما ولا رغبة ولا تمن. واعتبرنا في البحث الذي أجزناه لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان: "نظام المطابقة في الظاهرة اللغوية" أن مفهوم الفضاء الذهني يمكن أن يفسر الأبنية المشتملة على عناصر محدودة. فإذا دخل أحدهم إلى مطعم وقال:

1- شهيّ !

2- شهية !

فإن السامع في ذلك المكان يمكنه أن يقول البنيتين ويضبط دلالتهما بأن يكمل الاسم المولّد للوسم الذي حذفه المتكلّم منتجَ تينك البنيتين (إما الطعام في "1" وإنما الوجبة في "2"). وقد يكون استعراض عنده، أي عن الاسم المولّد المحفوظ، بحركة أنفه أو بإصدار صوتٍ يكون "رابطين" أو قرينتين دالّتين على إعجابه بتلك الرائحة.

⁸- يعتبر موشيلير أن مفهوم الوظيفة التّداوليّة هو تطوير لمفهوم الوظيفة الإحالية كما ورد عند اللّسانيّ الأمريكي نونبرغ Nunburg (موشيلير. القوس الموسوعي للتداولية:162).

⁹- « A space builder is a grammatical expression that either opens a new space or shifts focus to an existing space ».

¹⁰- وهذا يعّد حجّة إضافيّة تؤكّد أنّ المعنى عند فوكوني والمناويل العرفانية هو تكويني في المقام الأول.